وزارة الإعلام
الهيئة العامة للاستعلامات

سلسلة
حكايات مصر الطيبة
(٣)

منزلُ فرتونةَ السَّوْداءِ

بقلم
أبو مسلم يوسف
رسوم
هشامَ حسين

إشراف : د . إسماعيل عبد الفتاح
رقم الإيداع : ٢٠٠٣/١٧٥٥٨ في ٢٠٠٢/١٠/١٣م
الترقيم الدولي / 977-234-050-X

(الطبعة الأولى ٢٠٠٤)

بَعْدَ أن فتحَ المسلمون مصر على يَد "عَمْرو بن العاص" ، الذى أسَّسَ مدينةً جديدةً لتكونَ عاصمةً للبلاد ، وأسْمَاها "الفسطاط" ... كان أهلُ مصرَ يَنْعَمُون بالعدل فى ظلِّ الإسلام .. . فكان من يتعرضُ للظلم يشكُو للقاضى فيحكمُ بالعَدْلَ ، أو يذهبُ للوالى "عمْرو بن العاص" فيُنْصِفَه ، أو يرسلُ إلى خليفة المسلمين "عُمَرَ بن الخطاب" فيرفعُ عنه الظلمَ ، ويعيدُ إليه حقَّه ...

وفى تلك المدينة الصغيرة " الفسطاط" - التى أصبحَت الآنَ جُزءاً من القاهرة - كان المصريون - مسلمينَ وأقباطاً - يعيشون فى سلام .. يعطفُ القويُّ منهم على الضعيف ، ويُحْسنُ الغنىَّ منهم إلى الفقير ...

وفى منزل متواضع صغير من منازل "الفسطاط" كانت تعيش امرأةٌ عجوزٌ مسيحيةٌ ، اسمُهَا "فرتونَةً" ... ، وكانت ذاتَ بَشْرَة سمراءَ ، فاشتُهِرَت بين جيرانها باسم "فرتونة السوداء" .

لم تكنْ هذه العجوزُ الفقيرةُ تملكُ إلا منزلَهَا الصغيرَ الذى تعيشُ فيه ، والذى وَرِثَتْهُ عن زَوْجِها الذى ماتَ منذ سنوات عديدة ، وعاشَتْ وحيدة ، فلم تَكُنْ قدَ أنْجَبَت أبناءً ، إلا أنَّ جيرانَها .. الذين أَحبُّوها وتعاطَفُوا مع ظُرُوفها ، كان فيهم العوَضُ والعَوْنُ .. ، وكانت تَتَقاضَى من بيت مال المسلمين راتباً شهرياً مثلَ كلِّ الفقراء مسلمين ومسيحيين .. ! ، ورغم أنها مسيحيةٌ .. إلا أنها اعْتَادَت سَمَاعَ صوت الأذان من المسجد الملاصق لمنزلها ، وهو واحدٌ من مساجدَ كثيرة بُنيَت فى "الفسطاط" ليُصَلِّىَ فيها المسلمون .. ، ومع مرور الزمن كانت أعْدَادُ المساجد تزيدُ ومساحتُها تَتَّسعُ لتَسْتَوْعبَ الأعدادَ المتزايدةَ من الناس الذين كانُوا يعتنقونَ الإسلام .. ، ومن تلك المساجد التى أصبحت فى حاجة إلى زيادة مساحته .. ذلك المسجدُ الصغيرُ الملاصقُ لمنزل "فرتونة السوداء" .. .

وذَاتَ صَبَاح .. اسْتَيْقَظَت "فرتونة" على طَرْق على بَاب بَيْتها .. ففتحت وَوَجَدَت أمامَهـا أحدَ جيرانها من المسلمين ، هو وأحدُ مَشَايخ المسلمين ، فاسْتَغْرَبت "فرتونة" وسألَتْهُم فى دهشة :

- خيراً تفضلوا بالدخول ..! فردَّ عليها الشيخُ .

- شكراً أيتها الخالةُ الطيبةُ .. لا تَقْلَقى .. ولكنْ نرجوك أن تأتى معنا إلى ديوَان الأمْلاَك لأمْر مُهم وحكَى لها طلَبَ المسلمين توسيعَ المسجد وشرائه منها فرفَضَتْ ، وسارت معهم مُتَّكِئَةً على عَصَاهَا ، يُخَامِرُها الشكُّ والقَلَقُ .. ، وعندما وصلوا .. أدْخَلُوها حجرةَ رئيس الديوان ،الذى سألَها :



- أنت "فرتونة" ؟

- أجابت بصوت خائف ، مُرْتَعِش :

- نعم ، خيراً يا سيدى .. لماذا أَرْسَلْتُم فى طَلَبى بهذه الطريقة ، ماذا فَعَلْتُ ؟ وماذا تريدونَ من عَجُوز فقيرة مِثْلى ؟!

حاولَ رئيس الديوان تَهْدِئَتَها قائلاً لا تَقْلَقى أيتها الخالةُ الطيبةُ ، تفضلوا بالجلوس ...

جلست "فرتونة" ثم أشارَ صاحبُ الديوان إلى الشيخ بالجلوس ، فجلس إلى جوارها وبدأ رئيسُ الديوان يشرحُ سببَ اسْتِدْعائها قائلاً :

- الموضوعُ يا خالةُ أنك تَمْلكينَ منزلاً ملاصقاً لمسجد صغير جنوب المدينة ، وهذا المسجدُ لصغَر حَجْمِه لم يَعُدْ يكفى أعدادَ المصَلِّين المُرْتادين له من أهلِ الحىِّ ونحنُ بحاجَة لتَوْسيعه ...

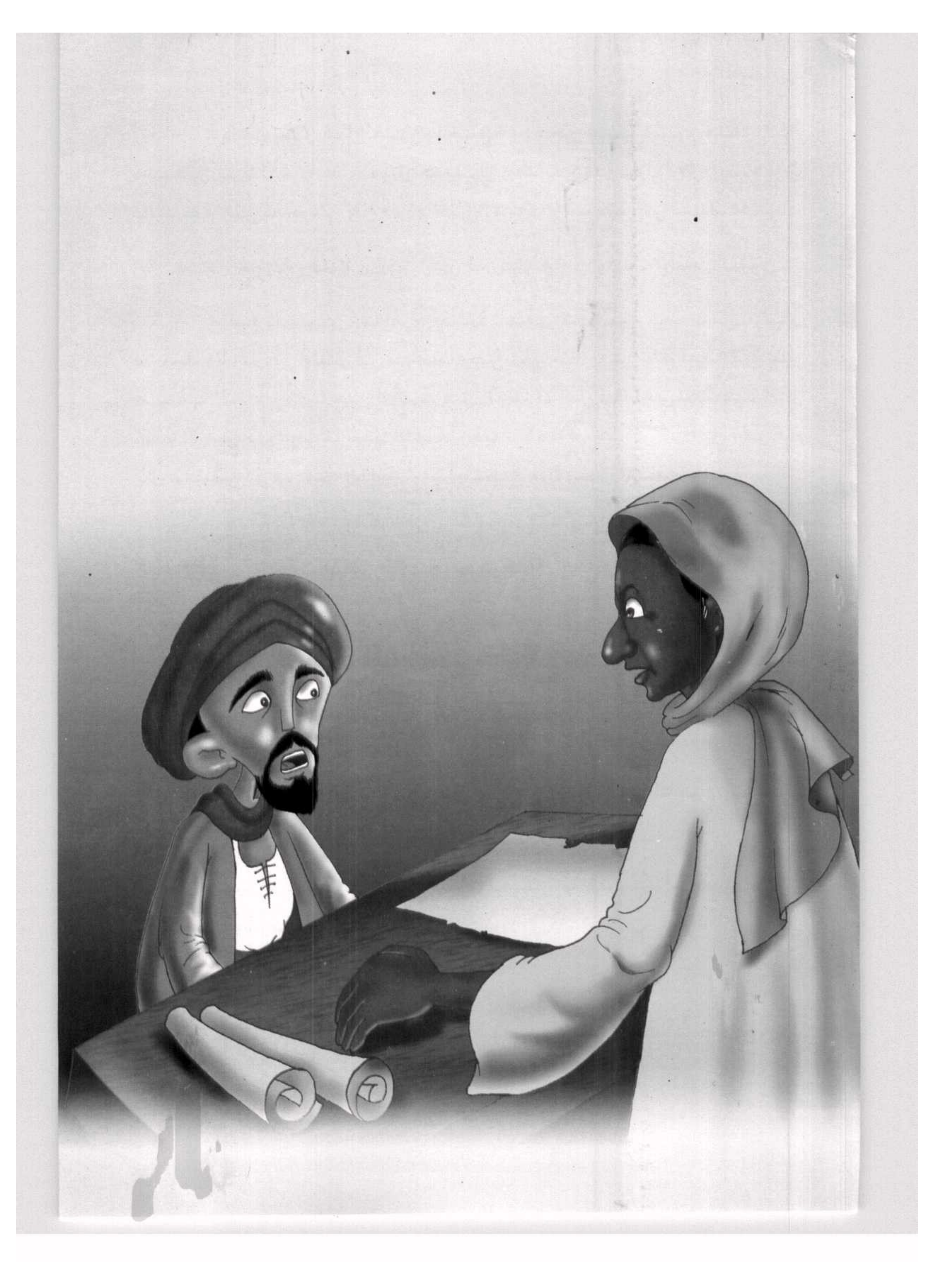
- قالت "فرتونة" وقد زادَها حديثُه دهشةً :

- وما دَخْلى أنا بذلك .

- قال الشيخ : يا خالةُ "فرتونة" المسجدُ تحيطُ به منازلُ من كل ناحية ، وحتى يتمَّ توسيعُه لابد من هَدْم هذه المنازل وضمِّ مساحَتِها للمسجِد ...

- فَزِعَت "فرتونة" مرةً أخرى وصرخَت : هل تريدُون هَدْمَ منزلى ؟ كيف ؟ إننى لا أملكُ إلا هذا المنزلَ الصغير ، وأين أذهبُ أنا ؟ هذا ظُلْم ...

- أرادَ رئيسُ الديوان تهدئتَها فقال لها :



- لا دَاعىَ لكل هذا الفـزَع يا خـالةُ . فـنحنُ سنَشْـتَـرى منـك المنزلَ وسيكونُ فى إمكانك شراءُ منزل جديد وإن أَردْت يُمْكنُك شراءُ أرض . وبناءُ بيت بالطريقةِ التى تُعْجَبُك . ولن يُهْدَمَ المنزلُ إلا بعدَ أن تَنْتَقلى إلى منزِلك الجديد .

هدأت "فرتونة" قليلاً .. لكنَّ الحزنَ لم يُفَارقْها .. . وقالت لرئيس الديوان :

- اسمَعْ يا سيدى : أنا امرأةٌ فقيـرةٌ . عجوزٌ كما تَرى . ماتَ زوجى . وليس لى أبناءٌ ولا أقاربُ .. وليس لى من يُسَاعدُنى على بناء بيت . ولم أَعُدْ قادرةً على مَـشَقَّـة البناء .. كـمـا أننى لا أعرفُ مـن الدنيا إلا أهلَ هذا الحىِّ الصـغيـر الذى عشْنَا أنا وزوجى . وبَنَيْنَا بيتَنا الـصغيرَ فيه . كـمـا أنَّ جيرَانى من أهل الحىِّ هم كُلُّ ما تبقَّى لى فى هذه الدنيا ... ولا أستطيع فرَاقَهم أو الابتعادَ عنهُم ...

- قـال رئيسُ الديوان : اسْـمَـعى يا خـالةُ .. إذا كـانت المشـكلةُ هى بناءُ البـيت فنحن مـسـتـعـدون لتكليفَ بعضٍ مـن رجالنـا للقـيام بـبنائه .. على نَفَقَتنا ..

- وأضـاف الشـيخُ : أمـا إذا فَـضَّلْت أن تَتَـقَـاضَىْ ثمـناً للمنزل فـسـوف نُعْطيك ثمناً مُـجْزياً .. يُعَـوِّضُك عن افْـتقَـاد جـيرانك . ويوفـرُ لك حَيـاةً آمنةً كريمةً . و ....

قاطعـتـه "فرتونة" قائلةً : أَفْـهَمُ ما تريدُ أن تقولَ أيهـا الشـيخُ ولكـننى لا أريدُ أن أبيعَ بَيْتى .

ارْتَسَمَت الدهشـةُ على وجه رئيسِ الديوان . واحـتـارَ فـى أمرِ هذه العـجوز العنيدة ... وكيف يتصرفُ معها ؟!

- وقال لها فى حزم وَحدَّة :

- حَاوَلْـنَا أن نُعَوِّضَك ونُرْضـيَك .. . فَلَمْ يُعْجِـبْك .. وهو أمرٌ ضـرورىٌّ ولابد



من تَنْفيذه . فإذا وافَقْت على أحَد عُرُوضنا فهو خيرٌ لك . وإذا لم تُوَافقى سَنَهْدِمُ البَيتَ ونُوَسِّعُ المَسجدَ ......

– صرخت "فرتونة" وبَكَت . وخرجَت من حجرة رئيس الديوان حزينةً .. لا تعرفُ ماذا تعملُ . وعادت إلى منزلها .. شارِدَةَ الْعَقْلِ .. مَسْلُوبَةَ اللُّب .. تشعُر بالعجز .. وقلة الحيلة .. تنظرُ إلى كل ركن فى المَنزل . وتَتَدَافَعُ إلى رأسها ذكْرياتُ السنينَ الطِّوال .. منذ أن حَضَرَتْ إلى الحىِّ الصغير . فى رفْقَة زَوْجهَا – عَامل الفُخَّار البسيط – وعندما كانت تساعده فى بناء المنزل وهو يَخْلطُ

الطَّمْىَ بالقَشِّ الناعم "التِّبْن" فى قَوَالبَ صغيرة ، صانعاً الطوبَ اللَّبِنَ ، الذى وضعَهُ بكَفَّيه واحدةً بعدَ الأخرى فى جُدْران البيتِ وأركانه حتى أقامَ الحوائطَ .. ثم راحَ يَجْلبُ من خَشَبِ الأشجار الجافة وسَعَفِ النخيل يوماً بعد يوم .. ما يَكْفى لصُنْعِ سَقْفٍ بسيط .. يحميهم من حرارة الصيف ، وبرودة الشتاء ... وتتذكرُ جيرانَها من أهل الحىِّ الذين وقفوا إلى جوارهما يساعدُونَهما فى البناء .. وهم الذين زادت رِعَايَتُهم ومساعَدَتُهم لها بعد وفاة زوجها ..!

مرت عِدَّةُ أيام ، و"فرتونة" على حالها من الحزن والإحْسَاس بالضَّياع ، لا تَدْرى ماذا تَفعلُ ... وكلَّ صباحٍ تنتظرُ أن يأتىَ الجنودُ لطَرْدها من المنزل وهَدْمه .



وذاتَ صباحٍ سَمِعَت طرقاً شديداً على بَابِ بَيْتِها ، فَفَتَحَتْ لتجدَ الجُنْدَ أمامَ الباب ، ومعَهُم رئيسُ الديوان ، الذى دخل بجنوده وأمر "فرتونةَ" بالخروج ، وأشارَ إلى الجُنْد ، فجمعُوا ملابسَها وحَاجيَاتها ، وخرجت "فرتونة" حزينةً باكيةً .. وتجمَّعَ حولها الجيرانُ يُوَاسُونَها ، وهى مُنْهَارةٌ تماماً .

بعد أن آتمَّ رئيسُ الديوان مُهِمَّتَه خرج مع جنوده وأغلقُوا البابَ جيداً ثم توجَّه إلى "فرتونة" الباكيةِ وسطَ جيرَانِها ، وألقَى فى حِجْرِها بصُرَّةٍ كبيرةٍ مملوءةٍ بالدنانير وقال لها :

- هذا المالُ يكفِى لبناءِ منزلٍ كبيرٍ من الحَجَرِ المَصْقُول .. ويزيدُ .. فلماذا



البكاءُ والتعاسةُ ؟ ثم أمرَ الجنودَ بحَمْل حَاجيَاتها إلى منزل الشيخ وهو أحدُ جيرانها المسلمين الذى أبْدَى استَعْدَادَه لاستَضَافَتها عنده . وانصرفَ رئيسُ الديوان بجنوده .

وفى المساء تكلَّمَت مع جارها رَغْمَ علْمها أنه كان من الجند الذين اقتادُوها إلى رئيس الديوان . ولم يَعْتَرض - أمَامها - على ما قَرَّرهُ رئيس الديوان ، أو ما فَعَله .... شاكيةً .. مُعَاتبةً .. وقالت :

- هل يُرْضيكَ هذا أيها الشيخُ ... إن الإسلامَ دينُ عدلٍ فلماذا تظلمون عَجُوزاً مسكينةً مثْلى وتُجْبرُوننى على مغادرة بيتى ؟!

- قال الشيخ : نَعَم يا خالةُ "فرتونة" ، الإسلامُ دينُ عدل ... وأنا لستُ راضياً عما حَدَث ، فمن حَقّك أن تَرْفُضى البيعَ ، ورئيسُ الديوانً هو الذى أمرَ بالهدم ، وهو أمرٌ فيه تَجَاوُزٌ وظلمٌ ، ولكنه للأسف لم يَفْهَمْ ذلك ، رغم أننى حاولت أن أشرحَ له ، لكنه يتصورُ أن تَعْويضَك بمزيد من المال يُبَرّرُ ما قامَ به ، مستنداً على أن ما فيه مصلحةُ عامةٌ يَعْلُو فَوقَ مُصْلَحَة شخص واحد ... لكن هذا للأسف يُخَالفُ سُنَنَ الإسلام وتعاليمَهُ السامية ..!

- قالت "فرتونة" : وماذا أفعلُ الآن أيها الشيخُ ؟

- أجابَها الشيخ : عليك بالشكوَى لأمير المؤمنين ، فهو رجلٌ عادلٌ لا يَرْضَى الظلمَ لأحد .. أيًّا كانَ .

- سألت "فرتونة" فى دهشة : وأينَ أميرُ المؤمنين ؟

- أجابها الشيخ قائلاً : إنه فى المدينة المنورة ، ويُمْكنُك أن تُرسلى شكواك إليه بالبريد .

- طلبت "فرتونة" من الشيخ - فى استحْياء - أن يَكْتُبَ لها الشكْوى .

ولكنْ أَسْعَدَها أنه وافَقَ على الفَوْر ، وكتبَ الشكوى ، شارحاً فيها لأمير المؤمنين ما حَدَث من رئيسِ ديوانِ الأَمْلَاك وجُنُوده .. ، ثم طَوَى الرسالةَ وَأَوْصَلَها بنفسه إلى ديوانِ البريد ......

بسَبَب بُعْد المسافة بين "الفسطاط" - فى مصرَ - والمدينة المنورة فى الحجَاز ... ولأنَّ البريدَ كان ينتقلُ بالخَيْل أو الجمَال .. فتستغرقُ الرحلةُ عدةَ أسَابيعَ ... لذا طَالَتْ مُدَّةُ انتظار "فرتونة" لردِّ أَمير المؤمنين على رسالتها وحلِّ مُشْكلَتها .. وذَاتَ صباح .. مرت "فرتونة" فى شَارع بَيْتها فلم تَجِدْ لمنزلها الصغير من أثر فقد تَمَّ هَدْمُه تماماً .. صُدمَت المرأةُ المسكينةُ صدمةً بالغةَ القَسْوَة ، وأصابَها اليأسُ من أن يعودَ إليها منزلُها ..!



وبعـد ثلاثة أشهـر جاء إلى منزل جارها الذى تقـيمُ عنده مجـموعـةٌ من الجُنْد يطلبون "فَرتونةً" .. فخافَت أن يَعاقِبَها رئيسُ الديوان بِسَبَبِ شَكْوَاها .. وذَهَبَتْ معهم مُضْطَرَّةً . ودخلت خائفةً إلَى حجرةِ رئيسِ الدِيوان .

أشارَ لها الرجلُ بالجلوس . ثم قال لها :

- وَصَلَت شكـواكِ إلى أميـرِ المؤمـنين أيَّتُـهَـا الخـالةُ . وقـد أمَـرَ بِهَـدْمِ التَّوْسعَةِ التى بَنَيْنَاها فى المسجِد . وإعادَةِ بناءِ بيتك كما كَانَ ..

- لم تُصَدِّقْ "فـرتونة" ما سَمِعَـتْه وتَهَلَّلَّ فرحـاً واستطردَ رئيس الديوان قائلاً :





- غَداً بإذن الله يبدأ هَدْمُ ما أضيفَ من جُدْرَان إلى المسْجد . وقريباً يكون بيتُك قد بُنِىَ كما كَانَ .. . وأَذنَ لها بالانْصراف فَخَرَجَتْ سعيدةً راضيةً بإنْصَاف الخليفَة لهَا . لا تَكَادُ تُصَدِّقُ ما حدث ..!!

وفى المساء ذهبت "فرتونة" إلى منزل الشيخ لتَشْكُرَه على ما فَعَلَه من أجْلها . وتُبَشِّرَه بأمْر "أمير المؤمنين" وعندما استَقْبَلها لاحَظَ الفرحةَ الغامرةَ علَى وَجْهِهَا . فقال لها باسماً :

- مرحباً يا خالةُ "فرتونة" ترى ما سببُ كلِّ هذه السعادة؟ .

قالت "فرتونة" : أنْصَفَنى "أميرُ المؤمنين" أيها الشيخُ . بعدَ أن أصابَنى اليأسُ ... اليومَ جاء الجنودُ وأخذونى إلى رئيس الديوان . وأخْبَرَنى أن تَوْسعَةَ المسجد ستُهْدَمُ . وأنهم سوف يَبْنُون لى بَيْتى كما كانَ فى القريب .

- ابتسم الشيخ وقال : الحمدُ لله .. الآن تحققَ العدلُ .

- قالت "فرتونة" : نعم .. ولَوْلاَ مَشُورَتُكَ ومساعَدَتُكَ لى ما كنتُ لأَحْصُلَ على حَقِّى .. وحتَّى أكونَ صادقَةً معكَ .. فأنا لم أكُنْ أتصورُ أو أظنُّ أنَك ستُسَاعدُنى وخصوصاً أنَّنى مَسيحيَّةٌ . أطالبُ بهَدْم جزء من مسجد .. .

- قال الشيخ : يا خَالةُ "فرتونة" الإسلامُ يأمرُنا بالعَدْل مع كلِّ الناس : مسلمين وغير مسلمين واللهُ سبحانَهُ وتعالى يقولُ فى القرآن الكريم "يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامينَ للَّه شُهَدَاءَ بالْقسْط . ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدلُوا اعْدلُوا هُوَ أَقْرَبُ للتَّقْوَى" . صدقَ الله العظيم (المائدة - ٨) .

والأَمْنُ ياخَالَةُ "فرتونة" يَلْزَمُه الْعَدْلُ . وأنتم تَعيشُونَ مَعَنَا فى ظلِّ الإسلام فى أمن . أَلَيْسَ كذلك ؟

- قالت "فرتونة" : بَلَى . يا فَضيلَة الشيخ ولكنَّ شيئاً يُحَيِّرُنى أريدُ أن أسألَكَ عنه .



– قال لها [illegible] :

– خيراً ما الذى يحيرك ؟ قالت :

– أنْتَ سَاعَدْتَنى وأنت شَيْخٌ وإمَامٌ لمَسْجد وكنتُ أظنُّ أنك أولُ من سَيَقفُ ضدِّى لصالح توسعة المسجد الذى أنْتَ إمَامُه . ولكن الذى حدث هو العَكسُ . سَاعَدْتَنى . وكَتَبْتَ الشكوى بيَدكَ . وأرْسَلْتَهَا بنَفْسكَ ... إلى أمير المؤمنين ... الذى أمَرَ بهدم جزء من مسجد يُصَلِّى فيه المسلمون . من أجل عَجُوز مسيحية !!! أليسَ هذا شَيئاً غريباً فالمساجدُ كما أعرفُ أماكنُ مقدسةٌ ممنوعٌ المَسَاسُ أوْ إلْحَاقُ أىِّ ضَرَرٍ بها .. فَكَيْفَ يحدثُ هذا ؟!

فَهِمَ الشيخُ ما تعنيه "فرتونة" . وعَرَفَ سببَ حَيْرَتها ودَهْشَتها . وأراد أن يُفْهِمَهَا جَوْهَرَ العقيدة الإسلامية السَّمْحَة . فقال لها :

- العدلُ يا خالةُ "فرتونة" لا فَرْقَ فيه بين مُسْلم ومسيحى . ولا فرقَ فيه بين غَنىّ وفقير . ولا فرقَ فيه بين شابٍّ وعَجُوز ... ولكن الأهمَّ من ذلك أن المسجدَ الذى يُبْنَى على أرض أُخِذَتْ من صاحبها غَصْباً .. لا تُقْبَلُ الصلاةُ فيه .. وتُصْبحُ بَاطلَةً .. اندهشت "فرتونة" وقالت : بَاطلَة ؟ أجابَها الشيخ :

- نَعَم بَاطلَة .. وإن لم تُؤْخَذْ من صاحبها وهُو رَاض فَهى ملْكٌ له ، يجوزُ هدمُ المسجد أو جزءٌ منه ليَعُودَ الحقُّ إلى أَصْحَابه .. ولأنَّنى أعرفُ هذا حاوَلْتُ مُسَاعَدَتك بقَدْر استطَاعَتى عَلَى استرْدَاد حَقّكَ . ولأنّ أميرَ المؤمنينَ يعرفُ هذا أكثَرَ من أى شَخص فَقَدْ رَدَّ إليك حَقَّكَ ..

وَبعْدَ أيام .. انْتَهَى العمالُ والجندُ من الْهَدْم وإعادة البناء . وعادت "فرتونة" إلى منزلها وَسْطَ جيرانها الذين حَمَلُوا حاجيَاتها ورَتَّبُوها .. ثم هَنَّأوها وانْصَرَفُوا ليَتْرُكُوها تَستَريحُ .. وعاد صَوتُ الآذان يَرنُّ فى أُذُنَيْها كُلَّ يوم خَمْسَ مَرَّات .. وهى سعيدةٌ بأنّ أميرَ المؤمنين شَملَ بعَدْله عَجُوزاً مسيحيةً فقيرةً مثْلَهَا !!!